

مساجلات جورجياس المصرى للأستاذ محمد مندور

كتب الأستاذ العقاد في العدد ٤٦٧ من (الرسالة) تحت عنوان « مساجلات » يقول : « نهيت إلي كلفة لأديب يكتب في (الثقافة) بتوقيع « محمد مندور » قال فيها عني بصدد الكلام عن أبي العلاء ورسالة النفران : « والعقاد يبدأ فيؤكد - فيما يعلم - أن فكرة أبي العلاء في هذه الرحلة إلى العالم الآخر لم يسبقه إليها أحد غير « لوسيان » في محاوراته في الأولمب والهاوية ؛ وهذا قول عجيب يدخل في سلسلة تأكيدات الأستاذ العقاد التي لا حصر لها في كل ما كتب ، والتي كثيراً ما تدهشنا لجرأتها ، ففكرة الرحلة إلى العالم الآخر قديمة قدم الإنسانية : عرفها اليونان قبل لوسيان ، وعرفها العرب قبل أبي العلاء . وأنا أحمد الله إذ نبه الأستاذ إلى كلمة محمد مندور هذا ، فالعقاد رجل لديه ما يشغله عن (الثقافة) وعن محمد مندور ، وهو منهمك في قراءة أمهات كتب الأدب التي وجد فيها أن « فكرة أبي العلاء في هذه الرحلة إلى العالم الآخر لم يسبقه إليها أحد غير لوسيان في محاوراته » ؛ فأني له بقراءة (الثقافة) ، وما هي بشيء إلى جوار عيون الأدب ؟ ومن هو محمد مندور ، ليقرأ له وهو مأخوذ بسحر لوسيان ؟

و « محمد مندور » يسره أن ينبه العقاد قبل أن يبدأ في مناقشته إلى تنمة مجلته كما هي بالثقافة عدد ١٧٦ « والسكل يعلم ما في أساطير اليونان من وصف لنزول أورفيوس إلى العالم الآخر ليسترد منه زوجه أوريديس ؛ والسكل يعلم وصف هوميروس لرحلة أوليس ، ووصف فرجيلوس شاعر الأناذة لرحلة أينوس ، بذلك العالم ، كما نعلم جميعاً أشعار التصوفة في أحلام بقلتهم ونومهم ، ومن تلك الرحلات الرائع الجميل كوصف الحارث بن أسد المحاسبي في « التروم » الذي نشره المستشرق آبري وصدر له الأستاذ

أحمد بك أمين ؛ وفي عصر مقارب لمصر أبي العلاء كتب ابن شهيد رسالة التوابع والزوابع المنشورة بكتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » (ج ١ ص ٢١٠) وهي شديدة الشبه برسالة النفران ؛ ومع ذلك يؤكد العقاد أن فكرة رسالة النفران لم يسبقها أبو العلاء إليها غير لوسيان «

وهذا فيما أظن كلام لا يستطيع العقاد ولا غير العقاد أن يدفعه ، فهو يؤكد أن أديباً لم يسبق أبو العلاء في وصف رحلة إلى العالم الآخر غير لوسيان ، ونحن نقول له : بل سبقه هوميروس وفرجيليوس ... و... فما الرأي إذن ؟ وهل يقبل الأستاذ العقاد - وهو العالم بكل تراث الإنسانية الروحي القدر تقيمته - أن نحمو من الوجود كل هؤلاء الفطاحل ليصح ما أكده ؟ ألا ليتنا نستطيع ذلك نرضى كبرياء العقاد وإن كان قد وضعه في غير موضعه .

وبعد فليس يضير العقاد أن يجهل وصف هوميروس أو فرجيلوس لرحلة كهذه ، إذ لو علم العقاد بكل شيء لفقد أهم صفة يتميز بها جميع البشر بله الأدياء منهم وهي صفة الإنسانية ، ونحن جميعاً نجعل أشياء كثيرة ولو أضفنا أعماراً إلى عمرنا ولو بذلنا جهد الرهبان في التحصيل ، وإنما يضير العقاد ككاتب يجب أن يحترم كرامة العقل أن يصدر في حاجته للنير عن منهج معيب .

لم يرد العقاد على ما وجهته إليه بل نقل الحديث إلى وجود اللجنة والنار قبل أبي العلاء وقبل لوسيان « على نحو ما يرى أن لندن كانت موجودة قبل رحلات المسافرين إليها » . وهذه سقطلة ما كان يليق برجل كالعقاد أن يلجأ إليها في كبرياء المتعالي ؛ فوضع الجدول ليس وجود النار واللجنة ، بل ولا علم الناس بهما ، بل وصف الرحلة إليهما وفيهما وصفاً أدبياً فدياً على نحو ما فعل هوميروس وغيره ممن ذكرنا

ولقد كان العقاد يستطيع أن يغالط - كما كان يفعل جورجياس كبير السفطائين عند اليونان على نحو أرق من هذا النحو - ألا ليته قال مثلاً إن اللغة كانت موجودة قبل وضع نحوها ، وأن الطبيعة كانت قاعة قبل استنباط قوانينها ، وأن العقل

بقى القياس فاسداً وغير فاسد؛ ومن الثابت أن المنطق الشكلي كله لا القياس فاسد لا يمكن أن يوصل إلى الكشف عن حقيقة جديدة، وإنما تعمل الأقيسة في الحقائق المعروفة؛ فإذا كان القياس صحيحاً انتهى إلى إتمام مناظرنا، ولا أقول إلى إقناعه، لأن الإقناع إحساس وتسليم قلبي، وأما الإلزام فانقاد اللسان أو شلل العقل وهذا هو الجدل. وإذا كان القياس فاسداً فتلك هي السفسطة التي لا تنفع ولا تفحم ولا تليق بالإنسان على أي نحو.

وإنما تكتشف الحقائق بالخيال وبالقلب، وتلك ملكات لا أحس لها بوجود فيما يكتب العقاد.

أنظر إليه في رده كيف يقول: «إن الجمع بين المعري ولوسيان مبحث يصح النظر فيه والاستفادة منه» وتلك لمعري مقارنة عجيبة، وأنا لا أرى أصلاً أي شبه بين أبي العلاء ولوسيان، بل ولا بين أبي العلاء وأي كاتب آخر؛ وذلك لإيماني بأن النفوس لا يمكن أن تتشابه أصولها؛ وقد بينت ذلك في الثقافة، ولن أعود إليه.

واتجاه العقاد الخاطي واضح في كل مقارناته. والذي أفهمه من المقارنة هي أن تكون إما «مقارنة تأثر» نبنى منها لبضاح أخذ كاتب عن آخر، والنهج الصحيح في هذا هو أن تثبت قراءة هذا الكاتب لذاك وتأثره به تاريخياً، إذ لا يكفي مجرد التوافق على فكرة أو صورة؛ والجمع بين أبي العلاء ولوسيان لا يمكن أن يكون على هذا النحو. أو «مقارنة فهم» وذلك بأن نجتمع بين كاتب وآخر لفهم كليهما على ضوء ما اختلفا فيه تبعاً لاختلاف منحاهما النفسى رغم وحدة الموضوع الذي يتحدان فيه أو المصدر الذي يأخذان عنه. وهذا ما لم يفعله العقاد؛ وإنما فعل وفعل دائماً أن حاول التماس أوجه شبه بين أناس وأشياء من السذاجة أن نجتمع بينها، فهو طوراً يقول بأن أبي العلاء قد كان اشتراكياً، وطوراً أنه قد أخذ مبدءاً للنشوء والارتقاء وبقاء الأصلح «الفصول». وهذه مجاولات باطلة؛ فأبو العلاء لم يجمع بشيء من هذا؛ ومذاهب الاشتراكية والنشوء غير بيت من الشر أو جملة مثبورة. وأنه لتسلف باطل أن يزعج العقاد بذلك.

كان يعمل قبل صياغة المنطق، وأن المنطق أقدم وأصدق وأنبئ من السفسطة. ولو أنه فعل لوجدنا في مغالطاته جلالاً، وأما أن «لندن وباريس وبلاد الأفيال» كانت موجودة قبل الرحلات إليها فهذه حقيقة مغالطة نافهة كنت أود أن يترفع عنها العقاد

أسرف العقاد إذن على نفسه وعلى القراء عند ما أكد أن فكرة الرحلة إلى العالم الآخر لم يسبق أبا العلاء إليها غير لوسيان، وهذه المسألة لا تقبل الدفع

فلنتركها إذن لما هو أهم وهو منهج العقاد في التفكير كما يطالنا من رده وتلك مسألة يضطرنا العقاد إلى أن نثيرها لا بسدد حديثه من أبي العلاء فحسب بل بوجه عام

سمعت العقاد يوماً يناظر في الأثر الذي يمكن أن تحدثه الثقافة الأجنبية فينا فيقول: «إن الكتاب الأمريكي لا يمكن أن يجعلنا أمريكيين وإلا لجملنا الثقافة الأمريكية أمريكيين» وهذا مثل لكل ما كتب العقاد، فسبيله دائماً هو «المغالطة» ثم «القياس الفاسد»

ألا تراه كيف ينقل الحديث من الرحلة الأدبية في العالم الآخر إلى وجود ذلك العالم وتصور الناس له، وهذه هي «المغالطة» ثم ينتقل إلى قياس وجود العالم الآخر في الواقع أو في خيال البشر وجوداً مستقلاً سابقاً على وصف ذلك العالم في الأدب، بوجود باريس ولندن وبلاد الأفيال وجوداً مستقلاً سابقاً على رحلة المسافرين إلى تلك البلاد وهذا هو «القياس الفاسد»

ووجه الفساد في كلا القياسين هو انعقاده بين أشياء مادية وأخرى روحية؛ فالتفاحة ليست كتاباً وإلا لكانت عقولنا معدت؛ ولندن ليست الجنة ولا باريس النار والسفر إليهما ليس وصفاً أدبياً للعالم الآخر تزوره بخيالنا

وهذه ليست إلا مجرد أمثلة؛ ففي كل صفحة مما كتب العقاد، بل في كل سطر نفس النهج. وفي الحق أني لا أعرف عيباً في التفكير أخطر من هذا.

أما المغالطة فخطرها بين؛ ومن نافلة القول أن تقف هندياً.

مرسلات ...

عالي !

أعلنت الصحف ذات يوم أن فلاناً سيتحدث ساعة كذا من المساء حديثاً علمياً ، وفلان هذا رئيس مرجوٍ مرهوب ، يتعد سلطانه إلى الأقاليم ، حيث ينبث له في أرجائها عمال ومرءوسون ... فحدثني صديق من أصدقائي أن كثيراً من هؤلاء المرءوسين قد فرغوا لهذا الحديث ، واحتشدوا له حول « المذيع » ثبات ثبات : منهم من ينشد العلم ، ومنهم من يتزود للملق والنفاق ، وأزف الموعد ... فلو ترى إذ خشمت الأصوات ، وأرهفت الأسماع ، والليل ساجٍ لا تسمع فيه إلا دقات « الاستراحة » تنبعث متقطعة من « المذيع » ، كأنها دقات قلب مضطرب على موعد للقاء ... ثم نطق المذيع :

« سيداتي ، سادتي : لم يتمكن حضرة الأستاذ (...) من الحضور ، وسنديع عليكم بعض الأسطوانات ا »
ورجع المذيع بعد ذلك رنيم « ليلي » وشدو « أم كلثوم » حتى انقضى وقت الحديث !

وزرت هذا الرئيس بعد يومين في مكتبه لشأن من الشؤون ، وكنت عرفت سر تخلفه عن مواعده ، فما راعني إلا كتاب يلقى به إلى ويطلب مني أن أقرأه ، فإذا هو من شخصين مرءوسين له في بلد قريب من القاهرة ؛ وإذا هما يقولان فيه : « أما والله لقد أجدت في حديثك ليلة كذا إجابة ما نحسب أن أحداً وفق إلى مثلها ؛ ولقد كنا نستمع إليك في جمع من أصحابنا من هو بينك ، والقوم من حولنا في نشوة ... فلما انتهى حديثك لم يبق أحد إلا حيّاك على البعد ودعا لك ، ثم اتنوا إلينا يلقوننا عنك التهنئات ... فهكذا فلتكن الأحاديث ا »

قلت وقد أخذتني الدهشة : أي حديث يريدان ؟ قال : هذان شخصان مقلتان تعوداً أن يلقىاني في كل مناسبة بمثل ما ترى ، وقد حسبنا أنني ألتقيت الحديث !

محمد محمد المرفي

الكلمات الضخمة في معرض الحديث عن شاعر مسكين كأبي العلاء

وشاء العقاد إلا أن يختم حديثه بتذكيرنا بقوله عن رسالة النفران : « أي شيء من هذه الأشياء لم يكن من قبل ذلك معروفاً موصوفاً ؟ أي خبير من أخبار الجنة المذكورة لم يكن في عصره معهوداً للناس مألوفاً ؟ كل أولئك كان عندهم من حقائق الأخبار ووقائع العيان ... »

وهذا كلام لا علاقة له أصلاً بموضع المناقشة فهو لا يدل في شيء على « أن فكرة الرحلة إلى العالم الآخر لم يسبق أبا العلاء إليها غير لوسيان » وإنما يدل على أن فكرة الجنة وأوصاف الجنة كانت معروفة عند الناس كما وردت في الديانات والكتب المقدسة . وأما أنها تستخدم في الأدب قبل أبي العلاء إلا عند لوسيان فهذا ما لم يرد عليه العقاد

ثم إن هذه الجملة في ذاتها تأكيد آخر من تأكيدات العقاد الغير مقبولة ، فأبو العلاء لم يعرف الجنة كما كان الناس يعرفونها أو يتصورونها ؛ والجانب الهام من جنته هو دنيانا أو على الأصح دنيا العرب ، إذ أنه قد نقل الدنيا إلى الآخرة وقد جمعت تلك الدنيا بتأريخها الطويل في صعيد واحد ، فهناك ترى الهدلى يجلب ناقته ، وابن الفارح محمولا زعفرانة على السراط ، وابن عدى بصيد ، والأعشى في هينه حور ، وكل أولئك أشياء لم يكن يعرفها أحد عن الجنة بل ولا يتصورها مجرد تصور ، وما هي من الجنة كما وصفها القرآن في شيء

ويضيف العقاد تذكيرنا بقوله : « إنها رحلة قديمة ولكن أبا العلاء أعادها علينا كأنه قد خطا خطواتها بقدميه وروى لنا أحاديثها كأنما هو الذي ابتدعها أول مرة ... » وموضع البحث هو كما قلت وأكرر أن نعرف مدى قدم تلك الرحلة ومن سبقه إليها ، أهو لوسيان فقط أم لوسيان وغير لوسيان ممن ذكرنا

والآن لم يبق لدى إلا أن أترك للقارى الحكم على طريقة الأستاذ العقاد في توجيه الخطاب من (لا يا شيخ ا) إلى أمثال ذلك مما أمسك قلبي عن الرد بمثله ، فهذا أمر سهل ميسور لكل إنسان .

محمد مشور